التعاون في زمن الشِدّة

رائـد شـرف الديـن

عشاء خيري تنظّمه مؤسسات الصدر - أميركا

٧ آذار ٢٠٢٠ | ديربورن، الولايات المتحدة الأميركية

أيها الأعزة،

يغمرني شعور دافىء وأنا أجد نفسي معكم هنا في أميركا، في البلد البعيد حتى نصل إليه، والقريب إذ نحن فيه. وما يجعله قريبًا هو أنتم، وقد استطعتم أن تحملوا الوطن في أفئدتكم لتجعلوا من كل بقاع الأرض وطنًا، وتسيّجوا لبنان بالدعم والدعاء، فيبقى رغمًا عن كلّ الأنواء والمصاعب.

ما إن أجلس إليكم حتى تحضرني صُوَر المكابدة التي أوصلتكم إلى ما أنتم عليه. الحنين إلى مَن تتركون وراءكم من ولد أو أهل أو أحبّة، شظف العيش لادخار ما يؤسس لعمل أو مشروع. تبذلون ما تبذلون تحضيراً لعودة آمنة إلى لبنان، ويحدث مرارًا أن تكون يد القدر أسرع فتخطف منّا الطفل أو اليافع أو الصبيّة، وهذه أقسى الاختبارات وأمرّها. وهذه الصُوَر تجعلني أنحني تحت عناوينكم الكبيرة التي عبرّ عنها الإمام السيد موسى الصدر منذ نصف قرن أو يزيد. والإمام الصدر إذ يخاطب جماعة من المهاجرين بعينها، فإنما يخاطب الجميع. فالمهاجر هوَ هُوَ، في نبل المشاعر، وكريم الاحاسيس، والاستعداد للعطاء.

هذا هو المهاجر، ونحن ماذا؟

واذ أقول نحن، فأعني الناس في الوطن، المتعلّقين بمَن هاجر تعلّق الولد بأهله، وحاجته إلى حمايتهم له، وإلى رعايتهم وسهرهم عليه. أجل. حاجة لبنان المقيم إلى لبنان المهاجر هي اليوم

أكثر من أي يومٍ مضى. وهذا ما لا يختلف عليه إثنان، فخلاص لبنان هو في ابتكار الصيغة التي تُمكن مغتربيه من ممارسة انتمائهم وحنينهم وضمان مستقبل ذويهم في البلد الأم.

منذ سنوات تتخبط منطقتنا العربية في مخاض عسير؛ ولم يكن لبنان بمنأى عن تداعيات هذا الوضع يتفاعل معه في السراء والضراء. وقبل أن نتمكن من استيعاب معضلة النزوح السوري الكثيف ، انفجر الاحتقان على هيئة احتجاجات، وإضرابات، وشلل سياسي، وركود اقتصادي، واضطراب مالي خطير. وليس خافيًا أننا جميعًا نتبادل تعابير القلق والخوف والوجوم. نحن على مفترق طرق: هل نستسلم لليأس والاستقالة؟ أو نشبك الأيدي والعزائم لنعيد بناء حياتنا ومستقبلنا ونضمن غدًا أفضل لأبنائنا وبناتنا؟

محدثكم، وبالنيابة عن مؤسسات الإمام الصدر وما تمثل من آلاف العاملين والطلبة والأسر- نحن اخترنا الطريق الثاني: طريق التجمّل بالحكمة، وطريق العزيمة والبناء واستعادة الأمل. لهذا جئناكم طالبين الثقة بقدرة الوطن على النهوض، والأمل بالمستقبل والشراكة سبيلا لتحقيق ذلك.

أعزائي وأحبتي،

بدأت مؤسسات الإمام الصدر- أميركا نشاطها عام ٢٠٠٠. وها نحن نلتقي للمرّة العشرين توالياً. وكنّا نتمنّى لو كانت ظروفنا مؤاتية كي نحتفل وإياكم لإحياء المناسبة. نأمل ونتطلّع أن نغيرّ أحوالنا نحو الأفضل علّنا نحيي اليوبيل الفضي وقد استتبت أوضاع لبنان في الأمن والبحبوحة والسلام.

من البديهي أن نتقّدم إليكم بتقرير موجز، يعرض ثمار عطاءاتكم على مدى الأعوام العشرين- أين كنّا وأين نحن اليوم.

١- تضمرّ مبرة رحاب الزهراء(ع) حاليًا نحو ٥٠٠ فتاة ممّن يتلقين كل خدمات الرعاية والحماية والتعليم. وبما أن متوسط مدّة الانتساب في الفترة ٢٠٠٠-٢٠٢٠ هو ثماني سنوات، فهذا يعني أنه أمكن تخريج قرابة ١,٢٥٠ فتاة خلال الفترة بين ممرضة، ومدرسة، وعاملة اجتماعية، ومهندسة، وصيدلانية، وغيره. مع الإشارة إلى أن متوسط مدة الانتساب كان خمس سنوات في عقد التسعينيات، ارتفع إلى سبع سنوات خلال العقد الأول من الألفية الجديدة، ووصل إلى ١١ سنة خلال العقد الماضي. وهذا مؤشر إلى تغيرّ اجتماعي عميق، يعكس - ضمن متغيرات عدّة- ارتفاع نسبة الفتيات الملتحقات بالجامعة، وتأخر سنّ الزواج.

٢- ٤٢٢ خرّيجة تمريض بمستوى بكالوريا فنيّة (BT) و٢١٠ خرّيجات بمستوى الامتياز الفني (TS)؛

٣- ٢,٦٢٤ خرّيجة في واحدة من الاختصاصات المهنية على أنواعها (تنشيط اجتماعي، أمانة سر، تزيين، تصوير، إلخ)،

٤- عدّة آلاف من طلبة التعليم الأساسي والروضات والتربية المختصة،

٥- عشرات الآلاف من زوار المستوصفات ومراكز الرعاية الصحية الأولية.

اقتضى التوسّع في الخدمات، توسعًا في المرافق والمدارس. فارتفع عدد المراكز الصحية من أربعة إلى ثمانية، والعيادات النقالة المجهزة من واحد إلى ثلاثة. يسهر على تشغيل هذه المرافق، وعلى توفير الخدمات الرعائية والتربوية والصحية فريق عمل تعداده نحو ٢٠٠ موظف بدوام كامل ومثلهم بدوام جزئي. ٩٠% منهم مقيمون في الجنوب ضمن أسرهم.

وصلت النفقات التشغيلية والاستثمارية خلال العشرين عامًا الماضية إلى ١٦٠ مليون دولار. بلغت مساهماتكم فيها ٦ ملايين دولار، أي ما يقارب ٤ % من إجمالي المدفوعات. وهي مساهمة مشكورة وفعّالة جدًا.

أعزائي،

تلك كانت بعض المعطيات الرقميّة والإحصائية. والمنظور الأهم هو تأثير تلك المنجزات على سلّم إحراز الحقوق الأساسية للإنسان وصيانة كرامته والارتقاء به نحو الغد الأفضل:

- أهمّ ما أنجزناه أننا أعدنا الفتاة إلى المكان الذي يليق بها: شخصية واثقة وفاعلة وذات تأثير اجتماعي وازن مقرونٌ بالخيار الحر. نتحدث هنا عن آلاف الفتيات اللواتي وجدن أنفسهن في كنف المؤسسات طلبًا للحماية، أو الرعاية، أو التأهيل وصولا إلى التمكين الكامل والمساهمة الفاعلة في أسرهن وقراهنّ ومجتمعهن. ووسائلنا لتحقيق ذلك تبدأ بدُور الأمومة والرعاية والحضانة، وتمرّ بالمدارس والمعاهد، وصولا إلى منافذ التشغيل في معامل حياكة السجاد، والطلاء بالفضة، وتدوير الورق، وصناعة الصابون، كما في فرص العمل في المستوصفات والمستشفيات للممرضات، وفي الجمعيات، والقطاع الخاص للناشطة الاجتماعية، أو أمينة السر، أو المصوّرة الفوتوغرافية، وغيرها الكثير.
- إلى ذلك، نسجّل مساهمةً مرموقة في مساعدة أهالي القرى والأرياف على الصمود في أرضهم وبيوتهم عبر المئات من فرص العمل الكريم والمستقر، وعبر مشاريع التنمية المحليّة وشبكة المراكز الصحية والاجتماعية. ونتطوّر تدريجيًا نحو توفير خدمات متخصصة وفريدة مثل تأهيل المصابين في النخاع الشوكي في دردغيا، والعناية بحديثي الولادة في مركز إسيل في بيروت.
- نرى من واجبنا الأخلاقي والإنساني أن نحافظ على نسق الطموح في نقلات جديدة في عملية تمكين النساء تحديدا والمهمشين والضعفاء عمومًا. نحن الآن نحس باستقرار النتائج رغم كل شيء، والنتائج التي نقصدها هي في الرأسمال البشري الذي ساهمنا في تكوينه. وهذا الرأسمال يلازم الإنسان في حلّه وترحاله، ولا تبدده الأزمات أو الكوارث أو الحروب. فالمتعلّم والواثق

والمؤمن يبني حيثما كان، ويكون جزءًا من الحلّ حيثما حلّ، في لبنان كما في الخليج، كما في استراليا أو أفريقيا أو أميركا.

إخوتي وأعزائي،

وماذا بعد؟

ما يزال الطريق أمامنا طويلًا.. ويؤسفني القول بأن الحاجات الملحة والأساسية إلى ازدياد. لا أريد التذكير بكل الحروب والأزمات التي عصفت بنا وبالجوار، وألقت إلينا بالآلاف من طالبي الخدمة الرعائية أو الصحية أو الإغاثية. يكفي التأمل في تبعات الأزمة الراهنة حيث تتفق كل التقديرات على أن حوالي ٥٠% من سكان لبنان أصبحوا تحت خط الفقر. ماذا يعني ذلك؟ إنّه يعني - بحسبة بسيطة – أن نصف الأسر المقيمة في الجنوب تعاني في توفير الحدّ الأدنى لأطفالها من متطلبات الغذاء والتعليم والصحة. والعاملون على الأرض يلمسون أثر المعاناة صبح مساء.

في اجتماعاتها الأخيرة، اضطرت الهيئة الإدارية إلى إعادة النظر بالكثير من أولوياتنا وطرائق تدخلنا. وأوجزها بالتالي:

١- شدّ الأحزمة وعصر النفقات إلى أقصى حدّ ممكن؛

٢- تجميد بعض المشاريع التربوية والصحية ريثما تنحسر الأزمة (مجمّع عرمون، ثانوية صور، المستشفى التخصصي في دردغيا)؛

٣- تخصيص المزيد من الموارد لتلبية المتطلبات الإنسانية الأساسية (دواء، غذاء، حماية، تعليم) على حساب مخصصات التنمية (تمكين، تدريب، مناصرة، إلخ).

تعكس هذه الانتكاسة في التوجهات (العودة إلى الإغاثة) الوضع السائد في البلد، والذي لا أرى موجبًا لتذكيركم به. أذكر فقط تأثيراته على موارد المؤسسات الخيرية: انكماش المخصصات الحكومية لدعم الجمعيات مع التأخير في صرف المستحقات، انحسار المساهمات العينية كأدوية الأمراض المزمنة والمستلزمات الطبيّة، عجز الأهالي عن سداد ما يتوجّب عليهم من أقساط مدرسية ومساهمات استشفائية، تآكل القيمة الشرائية للعملة، شح العملات الصعبة وتراجع الإسهامات الخيرية بما فيه تأدية الحقوق الشرعية للأفراد.

ما العمل؟

- كانت مؤسسات الإمام الصدر وستبقى مكان الذين لا مكان آخر لهم؛
- ملاذاً لليتيمات ومدرسة لطالبي العلم والمعرفة؛

- سنبقى ضمانًا لأن تصل حبّة الدواء إلى كل عجوز أو مقعد أو محتاج في شبعا أو مارون الرأس أو عيتا الشعب أو غيرها؛
- لن يجلس طفلٌ في بيته لأن أهله عاجزون عن تسديد قسطه المدرسي؛
- لن يُصرف موظف أو عامل في مرافق المؤسسات طالما هناك عمل يؤديه؛
- سنبقى منبراً لبث الأمل والرجاء والمحبّة.

لتلك الغايات النبيلة كلّها، أكرر: لبنان المقيم بحاجة إلى لبنان المهاجر حاجة الطفل إلى أبويه. ستبقى مساهماتكم في هذه الفترة العصيبة بارقة أمل وعربون وفاء. مساهمة كل واحد فيكم ستضيء زاوية معتمة، ومساهماتكم معًا ستضيء صرحًا إنسانيا لن يخبو.

ثقتنا عالية بأن نزّف إلى المترقبين في الديار بشرى استجابتكم لطلبنا.

والله من وراء القصد.

وشكراً.